



"الله سيعاقب بشار وجماعته لأنهم حولوا حدائقنا العامة مقابر"، يقول محمد أسد حاملا المصحف ومتوجها إلى قبر نجله الأكبر داخل حديقة في دير الزور بشرق سوريا.

تستقبل حديقة المشتل كل يوم ضحايا جددا للنزاع الذي يمزق سوريا منذ قيام الحركة الاحتجاجية المناهضة للرئيس بشار الأسد قبل عامين، سواء كانوا رجالاً أو نساء أو أطفالاً أو حتى مقاتلين في ريعان الشباب.

بدورها، تبكي أم محمد ابنها البالغ أحد عشر عاماً والذي قضى في القصف قائلة "آتي كل يوم من طلوع الشمس حتى قرابة الساعة الرابعة لأكون مع صغيري. إنها طريقي لأكون إلى جانبه. أرافقه، أتلوا عليه آيات قرآنية وأتحدى إليه".

قتل الفتى بشظايا قذيفة مدفعية فيما كان يلهو أمام منزل أسرته مع صديق له قتل بدوره. وتضييف الأم الملائعة "كان ابتسامتني وداعفي لابتسام كل يوم وسط هذه الحرب لكنه مات"، قبل أن تلعن نظام الأسد.

عبد الرزاق يتولى دفن الضحايا ويعمل هازئاً "لم نتلقي من حكومة سوريا منذ تسعه أشهر سوى القنابل والقنابل". ويضيف بحسرة "لا يستطيع أولادي الخروج. منذ تسعه أشهر وهم سجناء المنزل لأنني دفنت عدداً كبيراً من الأطفال بيدي وأرفض أن أدن أولادي".

لم يخطر في بالي أن الحديقة التي كان يلعب فيها أولادي ستتحول مقبرة"، مشيراً إلى أكمدة زين بعضها بورود اصطناعية. طاول النزاع دير الزور في يونيو 2012 بعدما كانت مركز الصناعة النفطية السورية.

ويوضح عبد الرزاق، الموظف السابق في آبار النفط، إن أكثر من ثلاثة آلاف شخص قتلوا فيها منذ ذلك.

هذا العدد الكبير من الضحايا ضاقت به مقبرة البلدية وكان الخيار الوحيد اللجوء إلى الحدائق العامة. تضم حديقة المشتل وحدها 160 "شهيداً" لم يتم التعرف على بعضهم، ولا يحتوي القبر أحياناً سوى على بقايا جثة مزقتها القنابل.

يستعين عبد الرزاق بسفرت صغير رسم عليه مواضع القبور ودون معلومات عن شاغليها. ويوضح "إذا سقطت قذيفة أو صاروخ ودمرت القبور، سأعلم مكان كل جثة بفضل هذا الرسم. العائلات يجب أن تعلم المكان الذي ووري فيه أحبابها".

في الجانب الآخر من الحديقة، ترکع امرأة أمام قبر حديث العهد وتهتف "لماذا يا سعد؛ لماذا رحلت؟". ترثي شقيقها الشاب سعد الحاج شهاب 17 عاما الذي قضى في 16 فبراير الفائت وهو يقاتل القوات النظامية. ويقول أحد أشقائه احمد تاج الحاج شهاب "شقيقنا مات وهو يقاتل ديكتاتورا. نحن فخورون به".

أحمد أيضا يقاتل في صفوف الجيش السوري الحر ومثله أشقاءه الثلاثة. تدخل مجموعة من المقاتلين المعارضين الحديقة وتروح تبحث بين القبور.

ثم تقف المجموعة أمام قبر ويجهش أحد أفرادها بالبكاء "إنه أبي. لقد قتل في قصف للنظام. كنت على الجبهة حين دفن ولم أتمكن من وداعه"، ثم يهتف "سامحني يا أبي".

المصادر: